أبو اسماعيل

عبد المنعم شلبي

السيد أبو اسماعيل رجل ولا كل الرجال ؛ طيب وظريف ، كل من في قريتنا يحبونه ويعطفون عليه ، لطيبة قلبه ، وخفة دمه، وميله الفطري للنكتة ، لايعرف هموم الدنيا وان تكدست على رأسه ، أو هو يعرف بها ولكنه لايعيرها كبير اهتمام ، فقير عريق في الفقر ، ومع ذلك يشكر الحميد المجيد على ان رزقه ساعدا قويا ، ونفسا صلبة ترنو في احضان الريف بين القنوات الخارية والزرع الاخضر ، يراه الناس في الفجر ذاهبا الى المسجد ، يتوضأ ويصلي ويختم الصلاة بادعية حلوة يحفظها عن ظهر قلب ،ويكررها عقب كل صلاة ويشعر بحلاوتها في كل مرة ، فاذا اشرقت الشمس رآه الناس مقرونا في قناة جافة يحفرها أو ينظف مجراها من الحشائش التي تعوق جريان الماء ...

فاذا انتهى من عمله هذا بحث عن شغل آخر .. يقدم الأعلاف للمواشي .. أو يسوي أرضا محروثة ، وكل عمل يأجره القدر المعروف ، رجلاه لاتعرفان نعل النعال . ولهذا تراهما مشققتين كالأرض العطشى ... وجهه أسمر عميق السمرة ، عيناه سوداوان واسعتان تنهدل عليهما أهداب مجهدة ، مهارته

فى العمل تجعل الفلاحين يفضلونه على سواه . ويوكلون اليه القيام باعمالهم ولايناقشونه فى الاجر لعلمهم انه لايشتط ولايغالى فاذا انهى عمله اليومى قبض اجره وذهب الى دكان المعلم عباس شاكرا نعمه الله . وهناك تستقبله زوجته ام اسماعيل هانئة ، وبعد ان تعد الطعام يجلسان للاكل وحدهما ، لأن ابنهما اسماعيل قد مات منذ زمن ولم يرزقهما الله بغيره ، وكانت زوجته تتذكر ابنها كلما جلسا الى الطعام فتبكى وتهجر الاكل ، وحينئذ يقول لها زوجها : « ياشيخة .. الدنيا فانية .. ولا دائم الا وجه الباقى .. بكره تخلف غيره » !

وليس معنى هذا انه لم يكن حزينا على ولده ! ولكنه كان قادرا على كتمان الحزن وكان فى استطاعته أن يسرى عن زوجته ويضحك فى وجهها ، ثم يقول لها

« الولد منى ، وانا موجود ، وان شاء الله نخلف غيره ، بدلا من الولد عشرة » ! . وحينئذ كانت تبتسم فى حياء وتجيبه « ابت الاخر كبرت وشاب شعرك ، ولم يعد فيك حيل » ! فيفهم من ذلك انها تستثيره فيقول لها « اذا كان شعرى قد شاب فان قلبى لم يشب ، وسوف ترين الليلة » ! ثم يضمها فى صدرها ويضحكان معا حتى يمسح الضحك بقايا الحزن من قلبيهما .

وبعد العشاء كان يتوجه الى المقهى . وهناك يجتمع رجال القرية الاعيان ومتوسطو الحال ومن دونهم . يشربون الشاى والمعسل . ويستمعون الى اغانى عبد المطلب وملاحم السيد حواس ومواويل محمد طه من الراديو ، ويضحكون على كل نكتة يقولها ابواسماعيل وبعد السمر يعودون الى بيوتهم ليكملوا بقية الليل مع زوجاتهم حتى يشرق اليوم الجديد ، فينشرون فى حقولهم ، ومرة اخرى يتحرس السيد ابو اسماعيل فى الغداة يحفرها او يضرب الارض بالفاس يقلب وجهها للشمس ، او يسوى ارضا محروثة او يروى زرعا عطشان . ولايسلم من نكاته احد من المارين حتى اعيان البلد ، والايام تمضى تلو الليالى هادئة مشرقة لايعكرها سوى بعض الحرائق التى تشب فى الحقول ايام الحصاد ، او بعض المعارك التى تشب عندما تشح المياه وتشح معها النفوس وتتولى طبيعته وسى الناس احقادهم وصفت قلوبهم وطالت سهراتهم فى المقهى وعلى المصاطب حيث يرتفع شأن ابو اسماعيل ، صاحب النكتة الحلوة والروح الطيبة ، وفى مثل هذه الايام لايكون هناك حفر ولا حرث ولا بذر ولكن هناك انتظار للحصاد وتشوق الى نتيجة العرق والجهد ، ولهذا كان السيد ابو اسماعيل لايحسد

تعودا فى تلك الظروف الصيقة التى يعل فيها الشعل ، وقداضطر ان يأخذ الارز والشاى والدخان من دكان المعلم عباس ابو الحمد تحت الحساب ... وكان المعلم لايمتنع عنه شيئا فى بداية الأمر ، ولكن الحساب تكاثر ، وبلغت قيمته ثلاثة جنيهات ونصف ، والسيد ابو اسماعيل لايسدد ، والمعلم عباس فرع صبره ، ولم يعد فى استطاعته ان يمد السيد باكثر من هذا ...

مطالبه بدفع المبلغ ولم يجد ابو اسماعيل مايدفعه ، فامهله مرة وثانية وثالثة حتى يأتى الفرج من عند الله ، ولكن الفرج لم يأت بالقدر المطلوب ، وفكر ابو اسماعيل . يبدو ان الفرج قد اغلقت ابوابه . الفلاحون يطلبونه عندما يكون لديهم عمل يريدون انجازه !؛ وفيما عدا ذلك لايريدونه لغير الضحك والتسلية ، يرونه كثيرا امام دكان المعلم عباس ، ويسمعون الحاج الرجل فى المطالبة بدينه ، وكانهم لايرون ولايسمعون له ! و كانت له قطعة من الارض او حتى بعض الماشية ؟ لهان الأمر ، ولكنه لايملك غير ساعده وعرقه ، وكان فى استطاعته ان يضحك على الدنيا بكتة لو لم يكن مدينا لأحد ، ولكن المعلم عباس رجل تاجر . المليم عنده يمثل قيمة مادية كبيرة ، فما بالك بثلاثة جنيهات ونصف ؟..

وذات يوم نشبت معركة حامية بين المعلم عباس والسيد ابو اسماعيل .. كانت معركة حادة كل الحد من جانب وهازئة ساخرة من جانب آخر ، وقتها اقسم المعلم عباس يمينا بالطلاق ليشتكين ابو اسماعيل فى المحكمة ويحجز عليه ، وحينئذ قال أبو اسماعيل فى بساطة متناهية .

ـ مادامت الحكاية وصلت الى الشكوى والحجز فكمل الحسبة وهات باكوشاى وربع سكر وباكودخان لأقدم لك النحسة عندما تأتى مع المحضر !!..

ولم يكن من الحاضرين الا ان يضحكوا ملء أشداقهم ، واغتاظ المعلم عباس اكثر من ذى قبل ، وانصرف ابو اسماعيل الى بيته وهو يفكر بحد فى دفع ماعليه من دين ، ولكن تفكيره الجاد لم يصل به الى نتيجة حاسمة ، وزاد يؤسه وشقاءه انه لم يكن يستطيع ان يبكت مع نفسه ! ، كانه فى استطاعته ان يضحك ويضحك الآخرين اذا التقى بهم ، ولكن اذا خلا بنفسه وصار معها وجها لوجه لم يستطع ان يبكت معها ! ويثقل عليه الهم لدرجة انه كان يشكر الله الذى اخذ ابنه واراحه من عناء البحث عن الطعام !. اذ من المؤكد ان ابنه لو قدر له ان يعيش لن يكون خيرا منه .

وفي طريق عودته وجد قطعة من الخبز ملقاة بجوار حائط ، فأخذها . وبعد خطوات يسيرة رأى كلبين يتعاركان .. أحدهما ضعيف الى حد الهزال ، يقوى بحرقة من صرخات جسمه الضخم القوى ، فوقف بالقرب منهما يبعض قطعة الخبز بين يديه ، ثم وجد نفسه يلقي بها للكلب الكبير ويقول له : خذ .. خذ يا معلم عباس ! . وامتلأت نفسه بالسرور حينما انقض الكلب القوى على قطعة الخبز يلتهمها بينما فر الكلب الهزيل هاربا غير مصدق بالنجاة ...

وفي اليوم التالي .. دعاه الحاج على ابراهيم ليسوي كوما مرتفعا بالأرض ويجعله صالحا لزراعة القرع ، كانت الأرض جافة صلبة ولكنه لم يعبأ بذلك .

وفي اثناء عمله مر عليه أحد الفلاحين وسأله عما يعمل ؟.. فقال له على الفور :

ـ سنزرع هنا قرعا .. الواحدة مثل رأس الحاج على ابراهيم ..

ثم رفع الفأس وطوح بها في الهواء ثم ضرب الأرض بقوة . وحينئذ احس بالم حاد في ظهره . حسه أول الأمر الما عارضا مثل تلك الآلام الكثيرة التي حدثت له من قبل ، فذلك ظهره بيده ثم واصل العمل . ولكنه بعد فترة وجيزة تبين أنه من المستحيل عليه أن يواصل الضرب بالفأس .. فذهب الى زوجته متألما شاكيا ، وراجت ام اسماعيل معالجته بحكمتها الساذجة ، فصنعت له لبخة من الردة الساخنة وربطتها باحكام حول وسطه المهول ولكن هذا العلاج لم يأت بنتيجة مثمرة بل ان المرض تسرب الى مفاصله كلها ، واصبح سير مجرى الطير متوكئا على عصاه ، ومع ذلك كان في استطاعته أن يسعى مواشي الفلاحين ويقدم لها العلوفات ... وكان يحلو له في بعض الأوقات ان يتحدث الى بقرة الحاج رضوان في السر ، قال لها يوما : حتى أنت أيتها البقرة تتكرين الجميل ! اطعمك وأسقيك ، ومع ذلك ، تعطين لبنك لأناس لايقدمون لك شيئا ؟ ...» واخذ يمسح على رقبتها وبقي كتفيها من القراص ، وهي مستسلمة راضية بهذا العمل اللذيذ . وفي هذه اللحظة أقبل الحاج رضوان من الخلف .. وسأله :

ـ ماذا تفعل للبقرة يا أبو اسماعيل ؟ .

فالتفت نحوه مشدوها كمن اخذته المفاجأة . ثم ابتسم واجاب :

ـ لاشيء .. كنت اعلمها بعض النصائح ، لأنها صارت شقيه في هذه الأيام .

ومر الحادث عاديا كما تمر نسمة الهواء ، وبينما كان السيد ابو اسماعيل سائرا ذات يوم في ارض مشعبة برجليه الحافيتين ، اعترضت زجاجة اسفل قدمه فدخلت فيها ، ومع انه انتزعها من رجله الا انها احدثت شقا طويلا عميقا ، وشرب الجرح من الماء ، وتعدى من التراب ، فتورمت قدمه وازداد المه ، وصار يعتمد على العصا أكثر من ذي قبل ، وزاد به الضعف فعلرت عيناه ، وبرزت عروق رقبته بوضوح كحبال رفيعة تربط راسه الاشيب بكتفيه الواهنين ، ومع ذلك لم يكف عن الضحك ، والقاء النكتة عندما يلتقي باهل البلد ، كان يضحك حتى من المرض نفسه ، ولم ينقطع عن الذهاب الى المقهى والجلوس بين السمار والاستماع الى الراديو والتحاف الحاضرين بما تجود به قريحته التي لم تكن تخونه قط ! ...

وفوجيء يوما بالمعلم عباس ومعه المحضر والعفير ، كان المحضر راكبا على حمار ابيض مقصوص الشعر ، وحينما نزل عنه اقتاده العفير حتى ربطه خلف بيت ابو اسماعيل الذي لم يكن سوى كوخ من اللبن ذي بابين متقابلين ، ثم نادى العفير بأعلا صوته :

ـ يابو اسماعيل .. جالك الموت ياتارك الصلاة !..

وخرج ابو اسماعيل من بيته يجر نفسه بصعوبة ، ليرى هذا الموت الذي جاءه في هذه اللحظة التي يشعر فيها بازدياد المرض وسطوته وآلامه ... وتمنى من كل قلبه ان يكون موتا حقيقيا ! ومن خلف الباب الموارب اطلت زوجته بعين ونصف متمتمة في تحسر وكآبة ! ، ونظر ابو اسماعيل بامعان في وجه المحضر ثم قال ساخرا :

ـ اهو انت الموت ؟ .. مرحبا ايها الموت ! .. تفضل شاي ياحضرة الموت ! ..

وتكلم المحضر بلهجة رسمية معلنا انه جاء بتكليف من المحكمة بناء على طلب المعلم عباس ابو الحمد للحجز على ممتلكات السيد ابو اسماعيل تنفيذ مبلغ ثلاثة جنيهات ونصف والمصاريف ، ثم اردف بلهجة آمرة :

ـ يابو اسماعيل .. اما ان تدفع واما ان تحجز ! ..

وبعد برهة استجمع فيها السيد ابو اسماعيل قواه ، تبسم عن اسنان متاكلة ثم قال :

ـ ولكن ياجناب المحضر ، انت جعلتني من ذوى الأملاك ؟. وانا لاأملك شيئا ، غير عصاى هذه وزوجتى فى داخل الدار ، واسمح لى ان اسالك ، لقد حنثتنى على انك الموت .. بشهادة العمر ؟ فلماذا انقلبت الى محضر ؟!..

ولم يطق المعلم عباس صبرا .. فصرخ فى المحضر ..

ـ هذا رجل مكار .. محتال .. يضيع الفرصة بالضحك والسخرية ؟ ...

ولما كان المحضر صامتا يفكر فى مايجب ان يفعله فقد اجاب ابو اسماعيل

ـ ياحضرة المعلم عباس .. انا اتكلم بجد .. ليس عندى شيء .. وانت تعرف ذلك .. ولكن اذا كنت مصرا على موقفك فاحجز على مراتى ؟ ..

واحتشد المعلم عباس بالغيظ بينما ضحك المحضر حتى اهرورقت عيناه ، وتصالت قهقهات الفلاحين الذين كانوا قد تجمعوا ليشهدوا عملية الحجز .. بينما صمت ابو اسماعيل وارتسم الحد فى جبينه لاول مرة ، وتجعدت عضلات وجهه الشاحب وبدا هرما كئيبا ، وهداه فكره فى هذه اللحظة الى ختام رائع لهذه الرواية . فقد راى ان يحسم الموقف بكلمة جديدة . فقال

ـ مادمتم مصرين على الحجز فاصبروا حتى ابحث لكم عن شيء ؟ ..

ثم ادار لهم ظهره القوس ودخل بيته ، ثم عاد بعض لحظات وعاد بنفس خطواته الوئيدة ، ودعا سيادة المحضر للدخول .

ـ ترى ماذا فعلت يابو اسماعيل ؟ ..

ـ لعله يحجز على الدولاب والسرير ؟ !!

ـ ربما كان لزوجته حلقان وعوايش ؟ ..

وفى الداخل كان المحضر منهمكا فى توقيع الحجز على حمار وحده فى ساحة الدار

كان همه ان يؤدى مهمته الرسمية ، فلما انهى واجبه خرج يفرك يديه ويطوى اوراقه فى سرور بالغ ، واحس المعلم عباس بارتياح عميق ؟ .. فقد ضمن نقوده وشفى غليله من السيد ابو اسماعيل ، ولم يبق امام المحضر الا ان يغادر القرية ، وجرى

المعلم وراء العير ليحضر الحمار بنفسه ، وتبعهم بعض الاهالى كل منهم يريد تقديم الحمار للمحضر الذى يعتبرونه ضيفا على القرية كلها وان كانوا يكرهون مجيئه .. ولكنهم لم يجدوا الحمار فى مربطه ! .. وداروا حول الكوخ باحثين عنه علهم يروا غير دجاجات تنقر الارض بحثا عن طعامها ، واعواد من القش مبعثرة هنا وهناك ، وافراص من المسكة مكدسة على شكل تلال هرمية ، وبدت من المعلم صيحة مكتومة ، اين الحمار ؟!.. وقال احدهم : لعله فك رباطه وجرى هنا او هناك ؟.. وانتشروا فى ارجاء القرية وحواريها ، ثم انطلقوا فى الحقول والمزارع ، ولكنهم لم يقفوا للحمار على أثر ! .. هل طار فى الهواء ؟ .. هل ابتلعته الارض ؟ .. هل سرقه اللصوص ؟ .. يالله الذى حل بالقرية! وانشغل الناس بالبحث عن الحمار بينما استبد اليأس بالمحضر ، فوقف صامتا كئيبا ، ومن خلال يأسه راح يفكر فى الرجوع الى بيته ، وفى الطريق الطويل الذى سيقطعه على قدميه ، وفى الحسارة التى حلت به ، وأخذ يستعيد فى ذهنه شكل الحمار وهيئته ، ومشيته وهو يركض به على الطريق ، وطفت الى رأسه صورة الحمار الذى وقع الحجر عليه ، فى بيت ابو اسماعيل ! .. فضرب جبهته بكفه وصرخ فى اعماقه :

«لقد حجرت على حمارى !..» .. والتفت الى ابو اسماعيل مرآه مستندا ظهره الى الحائط صامتا كأن شيئا لم يحدث من حوله ، واكن تجاعيد وجهه كانت تتحدث ، كما كانت نظراته الخابية تنالق بمعنى عميق ! .. فقد استطاع ان ينتصر ، أن يثبت قدرته رغم مرضه وفقره ، أن يحدث بلبلة فى عقول الناس الذين لم يعيروه التفاتا سوى ان يضحكوا منه ! ..

ها هو الآن فى استطاعته ان يضحك من قلبه ، ولكنه مع ذلك لم يفعل ! .. كانت ورطة المحضر تؤرقه ، وصاح الموظف المسكين فى توسل :

ـ حمارى يابو اسماعيل ؟!..

ـ لقد حجرت على حمارك !.. ولاشأن لى بذلك ، الأمر الآن فى يد المعلم عباس !.

وتعجب صاحب الحمار !.. انه يتحدث بمنتهى البساطة ، وكان المحضر المسكين ، لم يحضر حماره فى معركة لا حمار له فيها ولا جمل ! .. لقد صار الحمار ملكا لابو اسماعيل بمقتضى الأوراق الرسمية التى كتبها المحضر بخط يده ! كيف التخلص من هذه الورطة ؟ .. ملاذك أيها الموظف المسكين ؟!. حتى تحضر

حمارك ! .. فليذهب الدائن والدين الى جهنم . اما حمارك فلا ينبغي ان تخسره !..

دارت هذه الخواطر في راس المحضر فعاد يتوسل :

ـ لماذا فعلت هذا يا ابو اسماعيل ؟!..

وتنفس السيدات المتطفلة أجاب السيد :

ـ لأثبت لكم انني لا املك شيئا !..

وتجمع الناس ثانية ، وراحوا يبحثون عن حل لمشكلة الحمار ، ورأى بعضهم ان يتنازل المعلم عباس عن الحجز !.. ولكن المعلم رأى في ذلك اهانة له حيث يكون قد انهزم امام خصمه !.. وطالب في نفس الوقت ان يأخذوا على يد ابو اسماعيل ، الذي يعد سارقا ! .. ورأى آخرون ان يدفع صاحب الحمار المبلغ المطلوب ليخلص حماره وبعد ذلك يحصلونه له من اهل البلد !! ولكن المحضر لم يكن يملك هذا المبلغ .. وحينئذ قال الحاج على رضوان : « سوف اقدمها خدمة لجناب المحضر .. لعله ينفعنا في المستقبل !» ثم اخرج حافظة نقوده ودفع المبلغ .. وانصرف الناس الى شئونهم ، وارتمى ابو اسماعيل في بيته يعاني آلامه المبرحة ، ولكن حكاية الحمار جرت على كل لسان ..

تحدث بها النساء في بيوتهن ، وحكاها الرجال في مجالسهم وتفكهوا بها في اجتماعاتهم ، وعندما تجمعوا في قهوتهم ذات مساء ولم يجدوا من يسليهم بحكاية جديدة ، تذكروا ابو اسماعيل ، فقال احدهم :

ـ انت ياحاج رضوان !. لقد كان ابو اسماعيل يعلف مواشيك ويسقيها ! لماذا لاتساعده ؟!..

وقال آخر :

ـ وانت ياحاج علي !.. لقد اكثر طهره وهو يعمل في ارضك ؟!..

وتساءل ثالث :

ـ ما الذي كان يحدث لو ان المعلم عباس ابو الحمد تنازل له عن هذا المبلغ ؟ التافه ؟!..

وبدا عليهم جميعا الاهتمام بامر ابو اسماعيل .. فسرع الحاج علي ابراهيم بعلاجه في المدينة على حسابه الخاص .. وتنازل له الحاج رضوان عن بقرة حلوب ، وذهب جمع من الفلاحين الى بيت ابو اسماعيل يبشرونه بقدوم الفرج ، ولكنهم عندما وصلوا هناك وجدوه ميتا وامرأته بجواره تبكيه بحرقة ، عندئذ تمتموا في تحسر : لقد كان رجلا ولا كل الرجال .